قضايا اللّسانيات السوسورية القديمة والجديدة وتداولية اللّغة في العصر الحديث

ذهبية حمو الحاج

قسم اللّغة العربية وآدابها، جامعة تيزي وزو، الجزائر

hamoulhadj_d@yahoo.fr

الملخص

يحاول البحث الوقوف عند أهميّة اللّغة في العملية التوّاصلية والتّداولية، بالانطلاق من المفاهيم السوسورية المستقاة من مخطوطه، وموقعها أمام ما كان شائعا من مفاهيم أسّست للدّرس اللّساني المعاصر ولمختلف المناهج التّقدية الأخرى، التي سعت إلى القبض على آليات اشتغال اللّغة في الممارسة اليومية، وفي الذّهن للكشف عن مسارها نحو الإنتاج والتّأويل، أو في توظيفها في المجال التكنولوجي وما تثيره من قضايا استعمالية مختلفة تثبت اختلاف الآليات التّداولية باختلاف المواقف والسياقات، وباختصار ابراز كيفية انتقال الدّراسة من اللّسانيات إلى المخطوط، ثمّ إلى التّداولية.

ABSTRACT

The research attempts to stand at the importance of language in the communicative and deliberative process, based on the Saussurean concepts derived from his manuscript, and its position in front of the common concepts that were established for the contemporary linguistic study and for various other critical approaches, which sought to capture the mechanisms of language functioning in daily practice, and in the mind to reveal On its path towards production and interpretation, or in its employment in the field of technology and the various usage issues it raises that prove the different prgmatics mechanisms in different situations and contexts, and in short highlight how the study moves from linguistics to the manuscript, then to the pragmatics..

الكلمات المفاتيح: اللّسانيات، السوسورية، العصر الحديث

مقدّمة:

تعدّ اللّغة من المظاهر الأكثر حظّا من حيث الدّراسة والتّحليل، وفي الحقيقة هي المظهر الأكثر تعقيدا نظرا لما يميّزها من خصوصيات في الإنتاج والتأويل. لقد وجدت اللّغة لتفيد التّواصل بين البشر، وتساعدهم على التّطوّر في شتى المجالات، ذلك أنّها تعدّ العامل الأساس في التعرّف على الإنسان وعلى محيطه وقدراته الخارقة في الإبداع والتّعبير والتّواصل. وفي هذا الصدّد دُرست اللّغة بعدّة أدوات وفي عدّة توجهات وعلوم، إلى أن أصبحنا نتحدث عن الدّراسة العلمية مع ظهور فرديناند دي سوسير[i] بفضل العلم الذي يسمى لسانيات، والذي أسهم في دراسة عدد من اللّغات وإعادة وصف بعضها الآخر، الأمر الذي جعل دراسة اللّغة وفهمها أكثر علمية، وإن تمّ ذلك في معظم المستويات مثل: الصوت، والصّرف، والتّركيب والمعجم، إلا أنّ الإشكال يبقى مطروحا فيما يخص المستوى الدّلالي، الذي يتميّز بنوع من التّعقيد في إشكالات ربط الشكل بالمعنى وتحديد أبعاد ذلك في التّواصل البشري. ولا تزال الإشكالات المتعلّقة بالمعنى واردة وخصوصا في محاولة النّظر إليه من الجانب التّكنولوجي، إذ يتساءل الكثير من الباحثين عن كيفية تداول اللّغة في الأوساط التّكنولوجية، من زاوية تحديد خصائصها وانتقالها بين الأشخاص، ومن زاوية احتفاظها بمهمّة التبليغ دون عوائق وبشكل شبيه بالتّواصل الطبيعي. ومن خلال ما ذكرناه من قضايا، آثرنا البحث في تداول اللّغة أي التّعرّف على مقوّماتها من خلال العودة إلى بعض المفاهيم المعروفة في المدرسة اللّسانية المعاصرة، والعودة أيضا إلى المفاهيم المرتبطة بالتّداول، بمعنى العمل بمصطلح الكلام ثمّ الخطاب الذي اجتاح الدّراسات المعاصرة في اللّغة والأدب، من خلال إعادة قراءة سوسير وضبط بعض المفاهيم الأساسية في نظريته الشهيرة، والانتقال بعدها إلى التّداولية وما تفيده من خلال مباحثها في دراسة اللّغة في ظل الوافد التّكنولوجي الجديد، وفي مفهوم الاستعمال

الذي ظلّ مغيّبا في التّفكير اللّساني لمدّة طويلة إلى أن ظهر المخطوط وتمت مراجعة بعض المفاهيم الجوهرية التي كانت أكثر تداولا وورودا في الدّراسات المعاصرة والتي سنتوقف عند بعضها.

المفاهيم السوسرية اللّسانية بمنظور جديد

يمكننا الانطلاق في هذه الفكرة من الإشكال الوارد في قراءة سوسير وإعادة قراءته من جديد، نظرا لظهور ما يدعى بالمخطوط أو المسودّات، والغريب في الأمر أنّ الطلبة قد درسوا ما جاء في "محاضرات في اللّسانيات العامّة" دون أن يتفطّنوا إلى وجود نسخ أخرى قد لا تكون متوافقة تماما مع ما درسوه، يقول يوئيل يوسف عزيز:" وبعد وفاته سعينا للاطلاع على مخطوطاته وقد أُتيحت لنا الفرصة بفضل مدام سوسير، فقدّمت لنا الخطوط العامّة الأصلية أو المناسبة لمحاضراته القيّمة. وفكرنا أوّل الأمر أن نقارن بين مذكّرات دي سوسير الشّخصية والملاحظات التي دوّنها تلاميذه ولكن خاب ضنّنا، فلم نجد في مذكّراته شيئا من الملاحظات التي دوّنها تلاميذه في دفاترهم، ويبدو أنّ دي سوسير قد أتلف مسودات الخطوط العامّة لمحاضراته بعد أن انتهى من استخدامها. ولم نجد في مكتب سكرتيرته إلا ملاحظات قديمة، وهي لاشكّ مفيدة، ولكن لا يمكن إدخالها ضمن المحاضرات التي ألقاها في السنوات الثلاث "[i]، ويقصد بالسنوات الثلاث 1906-1909، إذ لم يستطع سوسير التّعبير عن آرائه التي كان يطوّرها لأعوام طويلة إلا في سنة 1906، وذلك حين عُيّن خلفا لجوزيف فرنهايمر في جامعة جنيف.

أثبتت العودة إلى المخطوط أنّ هناك أفكارا مختلفة تماما عن تلك الواردة في الدّروس[i]، وهذه الأفكار نجدها في كتاب فهم فرديناند دي سوسير وفقا لمخطوطاته -مفاهيم فكرية في تطور اللسانيات- من تأليف لويك دوبيكير وترجمة ريما بركة، التي تضفي على

"محاضرات في اللّسانيات العامة" الكتاب الشّهير المنسوب لسوسير نمطا آخرا من المعالجة والقراءة.

في مقدمة الكتاب تحدّد المترجمة "ريما بركة" بعض القضايا الجوهرية المتناولة من قبل لويك دوبيكير في إعادة قراءته لمحاضرات سوسير، وتتحدث فيها عن التّطورات العلمية الحاصلة في النّصف الثّاني من القرن العشرين، والتي من بينها الدّراسات اللّسانية التي عرفت انتشارا واسعا لم يعرف له مثيل، إذ انقلبت موازين الدّراسات اللّغوية المعيارية الوصفية ومفاهيمها، وأثّرت في العديد من العلوم الإنسانية الأخرى كعلم الاجتماع، الأنثروبولوجيا، وعلم النفس، كما أثارت عددا من القضايا ومن بينها: الحديث عن دي سوسير وجهود طلابه في وضع كتاب "محاضرات في اللّسانيات العامة"، إلا أنهم لم يطّلعوا على كل المدونات واكتفوا بالأفكار، التي كانوا يضنّون أنّها أهمّ ما يوجد في تلك المدوّنات، وهي مفاهيم في اللّسانيات على حساب مفاهيم أخرى كان سوسير يشدّد عليها ويؤسّس فيها لعلم السميولوجيا.

لقد أشارت المترجمة إلى أن الكتاب قد يكون خائنا لفكر سوسير في بعض وجوهه، إذ يقدم أفكارا تتعارض أحيانا مع الأفكار التي توجد في المخطوط، وأنها لا تؤدي المعنى الذي يقصده دي سوسير في محاضراته الشفهية وعدد كبير من المدونات والملاحظات التي وضعها من أجل محاضراته أو في مقالاته، وهنا توجّه "**لويك دوبيكير**" إلى البحث عن هذه المدوّنات التي تعبّر مباشرة عن فكر سوسير، وعن المفاهيم الأساسية التي تقدم تصويبا موثقا لمعارف ومواقف منهجية عند سوسير ومن بينها:

- اللّسان واللّغة والعلاقة بينهما، إذ لا يمكن دراسة اللّغة دون الاستناد إلى دراسة الألسن، فالألسن هي الشيء الملموس الذي يمكن من خلاله الوصول إلى ظاهرة اللّغة.

- تغير الألسنة على مرّ الزّمن هو ما يجعل للّسان تاريخ، ولكن لدراسة تطوّر لسان ما عبر الزّمن يستوجب دراسة حالات هذا اللّسان وهنا تتضح فكرة التّزامن والتّعاقب.
- اللّسان نظام يتكّون فيه معنى كلمة ما من خلال علاقتها بالكلمات الأخرى الموجودة ضمن هذا النّظام.
- القيمة: كلّ عنصر من عناصر اللّسان يتّخذ قيمته من خلال أمرين مهمين، طبيعة علاقته بعناصر اللّسان الأخرى وقوة تداوله وتواتر استعماله.
- الدّال والمدلول باعتبارهما العنصرين المكوّنين للإشارة اللّغوية ويحددانها.
- اعتباطية الإشارة اللغوية: وهي غياب العلاقة العضوية والمباشرة بين الدّال والمدلول.
- البعد الاجتماعي للّسان: وهو مفهوم لم يتّضح كفاية في كتاب "دروس في اللّسانيات العامة".
- السميائية: علم يرى سوسير أنه يقع في أساس كلّ العلوم، وهو الأمر الذي يجعل من سوسير رائد السميائيات وليس اللّسانيات فقط.

وهناك أفكار ذُكرت في كتاب "محاضرات في اللّسانيات العامّة"، أظهرت المخطوطات أنها تخالفها تماما، ومن بين هذه الأفكار نجد[v]:

- اللّسان كيان منعزل عن العالم تتم دراسته بحد ذاته ومن أجل ذاته، ولكن المخطوطات أظهرت أن اللّسان يتوافق مع الفكر، وبالتالي فإن للّسانيات علاقة بعلم النّفس وعلم الاجتماع والعلوم الأخرى.

- لم يدرك سوسير الفونيم على أنه أصغر عنصر مميّز يحمل فارقا بالمعنى، إلا أنّه يذكر في مخطوطاته أنه لا قيمة لصوت ما إلاّ بتقابله مع الأصوات الأخرى التي تنتمي إلى نظام الأصوات نفسه.

- أهمل سوسير البعد الاجتماعي للّسان، لكنّه كتب في المخطوط أنه لا وجود للّسان خارج المجتمع.

- تتضمّن المخطوطات المذكورة مسائل اللّسانيات العامّة والعناصر الأساسية التي من شأنها أن تسهم في التّفكير اللّساني اليوم.

- عدم ذكر ما يندرج في المخطوطات من علم الأصوات، والجناس التصفيحي في الشعر ككتابة الأسماء المرمّزة داخل نصّ الأشعار القديمة.

- إعادة بناء فهم سوسير وفكره بعيدا عن الأفكار المسلّم بها في نظريته منذ قرن من الزّمن، واستعماله لبعض التّعبيرات من قبيل: تركيب نظمي، ومحور نظمي، ومحور استبدالي.

- المحور العمودي تجمع فيه الوحدات وفقا لأصلها اللّغوي مثل (علم، يعلم، معلم، متعلم).

كما عرض لويك دوبكير في الكتاب الحديث عن مقدمة عنونها بـــ **دي سوسير آخر،** بدأه بتساؤل مفاده: هل هناك فكر دي سوسيري أم هو مجرد سراب؟ أي أنّ سوسير هو مؤسّس لعلم اللّغة وملهم العلوم الإنسانية الأخرى انطلاقا من محاضراته. وما قيمة مجموع المفاهيم التّالية: الدال/المدلول، اللّسانيات التّزامنية /التّعاقبية، الاعتباطية، القيمة اللّغوية؟ وما أهمية القيمة في فهم اللّسانيات؟ وما الفائدة من الحديث في التّزامنية والتّعاقبية؟ وما مدى استعمال سوسير لها؟ وما هو الهدف النهائي لأبحاثه باعتباره نتاجا لما كتبه طلابه **(شارل بالي وألبير سيشهاي).**

يعدّ **ألبير ردلينغز** الكاتب الثّالث الذي ساهم في عرض المحاضرات، التي ألقاها سوسير في فصل الشتاء عام 1907 والسنة الجامعية 1909/1908 إلا أنّه لم يحضر

المحاضرات الأكثر أهمية، والتي كانت في السنة الجامعية 1910-1911 إذْ يرتكز عليها الجزء الأكبر من الكتاب.

لقد عرفت الملاحظات التي جُمعت عن المحاضرات عددا من الانقطاعات، والانتقالات، والاستطرادات، والاضطرابات بسب التّعديلات، التي أجريت في مختلف مراحل تدوين الكتاب، كوجود نصوص متباينة ومتناقضة فيه، فمثلا نجد في الكتاب مقدّمة متباينة نسبيا تأتي المبادئ العامّة للّسانيات على شكل إشارة تتمحور حول اللّغة، ثم تليها فصول طويلة تتناول اللّسانيات التّزامنية، والتّعاقيبة، واللّسانيات الجغرافية وتنتهي المحاضرات باللّسانيات الاستذكارية. وبذلك وفي اعتقاد الكثير من الباحثين اللّسانيين فإنّ الكتاب عرف تعديلات مصطلحية كثيرة كحذف واستبدال كلمة:

-مادة سمعية بـــــــ مادة صوتية.

- جوهر لغوي بـــــ سلسلة صوتية.

- متوالية سمعية بـــــــ مقطع صوتي.

-وحدات لا تتجزأ بـــ عناصر صوتية.

-وصورة سمعية بـــــ إشارة مادية.

إضافة إلى وجود تبديلات غريبة مخالفة لما جاء في المخطوط، وهي تبديلات غريبة حسب تعبير المؤلف مثل: كلمة **عبارة** استبدلت **بتركيبة لغوية**، فنجد أن "**روبير غودويل** " أوّل من استطاع الاطّلاع على مخطوطات سوسير وقام باستخراج التّفاوتات العديدة بين المخطوطات، التي كانت بين يديه وكتاب المحاضرات في اللّسانيات العامة. وعلى حسب اعتقاد دوبكير، فإنّ النّصوص التي نشرها سوسير لم تكن لها علاقة باللّسانيات العامة، وإنّما كانت في النّحو المقارن بين الألسنية القديمة والاهتمام باللّغات الهندو أوروبية. أمّا الملاحظات المباشرة التي تقدّمها المخطوطات هي أنّ دي

سوسير قد اضطر للتّفكير في شروط لسانيات عامّة نظرا لعدم رضاه عن المناهج والمفاهيم المستخدمة في النّحو المقارن للّغات الهندو أوروبية، وهذا الاتّجاه في البحث يفسّر منهجيته ويفسّر جزءا كبيرا من نظريته لاحقا، فلابد من تحرّي المخطوطات التي من شأنها توضيح فكر سوسير حول اللّسانيات العامة، وذلك بإعادة كل مخطوط إلى تاريخ تدوينه، بحيث يمكن متابعة تطوّر فكره زمنيا ومنطقيا في الآن ذاته.

ومن بين المخطوطات التي تتضمّن تطوّرا منتظما هي تلك المحاضرات الثلاث التي ألقاها سوسير في جامعة جينيف في نوفمبر 1891 والتي افتتح بها تدريسه لتاريخ اللّغات الهندو أوروبية والمقارنة بينهما، وتشكّل هذه المحاضرات شاهدا على الحالة الفكرية لسوسير حول المسائل الأساسية (وصف القوانين العامّة للّغة) بالتّركيز على دراسة الألسنة، أو شروط التّعديلات التي تطرأ عليها المسألة الأساسية (ماهية حال اللّسان عبر الزمن). وتعتبر مدوّناته حول التنبير الليتواني 1894منعرجا فكريا انتقل فيه دي سوسير من النّحو المقارن إلى تأمّلات حول اللّسانيات العامة، إذ أنّ الهدف الأساسي للتّساؤلات حول النّبر ليس النّبر، وإنّما بالأحرى تحديد علاقة التّقابل والتّمايز في اللّسان الذي لا يشكّل فيه النّبر سوى عنصرا من بين العناصر الأخرى.

تتضمن الملاحظات التي قدّمت في نوفمبر عام 1894 مقالة عن "**ويتني**" عالم باللّغة السنسكريتية في (و. م. أ)؛ وهي ملاحظات حاسمة في المسار الفكري لسوسير، اذ نقرأ فيه توسيعا في النّظر إلى اللّغة باعتبارها مؤسّسة الإنسانية، وعن نظرية الإشارة والتّمييز بين التّطور وحالات اللّسان، والطّابع الكميّ للتّقابلات، ومفهوم الاعتباطية التي تظهر للمرّة الأولى بقلم سوسير، الذي كان يهدف من خلال تكريمه **لويتني** إلى استخلاص مجموعة من النّتائج التي يحصدها النّحو المقارن، أي شيء عام عن اللّغة والابتعاد عن المنهج المقارن.

كما جاءت مفاهيم ومسائل أخرى في علم الأصوات، وعلم الصرف، والاشتقاق، وتاريخ الألسنية القديمة، وإشكالية الإشارة، أو المنهجية في اللّسانيات. ورغم التّكرارات والاختلافات من خلال مسائل متعلقة بإعادة بناء اللّغة الهندية الأوروبية، تمّ بناء نظرية حقيقية للّسانيات العامّة. مثلما تضاف عدّة رسائل تُظهر تقدّم أبحاثه وعدم الفهم الذي واجهه دي سوسير، وهي أمور متعلقة بفهم فكره، إلا أنه يعالج بإسهاب في رسائله مسائل متعلقة باللّغة الهندو أوروبية، ويذكر اشتغاله كذلك باستخراج مبادئ في اللّسانيات العامّة.

إنّ الملاحظات التّمهيدية لمحاضرات في اللّسانيات العامة، التي ألقيت في جنيف Genève عام 1907-1911 تقدّم توضيحا أساسيّا عن فكر سوسير، بحيث كتب بنفسه عن اعتباطية الإشارة، والتّمييز بين اللّسان والكلام ومسألة القيمة، والبعد الاجتماعي للّسان، والسيميائيات. كما نجد إشارة في الكتاب إلى أنّه لا يمكن إهمال الملاحظات التي دونها طلاب سوسير، رغم صعوبة تتبعها بشكل مواز، فإنّها كانت تعبّر عن شخصية سوسير الأستاذ، الذي يعبّر عن الحقائق وسيرها ويمثّل لها ويبسّط البيانات، ويوسّع في بعض النّقاط إذ اجتمعت العديد من المحاضرات المتقاربة على مجموعة من المفاهيم والمصطلحات (اللّسان/اللّغة) و(التّعاقبية/ التّزامنية) و(الدّال/مدلول). وهناك من الملاحظات ما يمكن مقارنتها بالمخطوطات تتوافق مع ملاحظات سوسير، التي من شأنها أن تجعل الفكرة أكثر وضوحا، إذ هناك بعض التّباينات أيضا في بعض المسائل مثل: الاعتباطية الكلية (الدال-المدلول).

لقد بدأت المخطوطات بالظهور ابتداء من عام1950، أعيد من خلالها نقل مجموعة من المدوّنات في موضوع اللّسانيات العامة تمتدّ من عام 1890-1894. أمّا أطروحة روبير التي تحمل عنوان (المصادر المخطوطة لمحاضرات اللّسانيات العامة لفرديناند دي

سوسير) وتعتبر مؤلَّفا مجدّدا تقدّم لأول مرّة توضيحا مضاعفا على الملاحظات التي خطّها سوسير بنفسه والتي دوّنها عدد من طلابه، ما سمح بظهور دفاتر إميل قسطنطين في 1958 والمعلّق رودولف أنغلر 1968، الذي أضاف طبعة جديدة ومميّزة على عمل النّشر الذي نتج من هذه المحاضرات.

في سنة 1996 عثر على حزمات من المخطوطات المدوّنة الرّاقدة في دفينة البرتقال في قصر سوسير منذ ثمانين عاما تقريبا من وفاته، وقد جعل كل من **سيمون بوكيه ورودولف أنغلر** هذه الملاحظات سهلة المنال سنة 2002، وتدعّم عددا من النقاط، بحيث كان سوسير يحضّر كتيّبا عن اللّسانيات مؤكّدا بعض التّصريحات على المنهج المستعمل، وعدم صحّة المصطلحات اللّسانية المستعملة آنذاك التي تسبّب الالتباس والغموض. يمكن القول إنّ هذا الكتاب تناول المسائل التي أُهملت في المحاضرات، أو لم تُفهم ولم تُطرح جيدا، فقد فصل فيها المخطوط ومنها:

1- **تفضيل التّزامنية على حساب التّعاقبية،** إذ أن سوسير لم يتوقّف عن التّفكير في ماهية الزمن بالنّسبة للألسنة، فهو يؤكد بأنّه لا يمكن إدراك الألسنة إلا بالإبقاء على حالات تغيير اللّسان عبر الزمن.

2-**الاعتقاد السّائد بأنه قد فضّل لسانيات اللّغة على حساب لسانيات الكلام أو العكس،** صحيح أنه فضل لسانيات اللّغة على حساب لسانيات الكلام، إذ توضح المخطوطات أنه تبنى الموقفين معا إذ يذكر أنه يسعى وراء دراسة اللسان، ولكنّه يضيف مباشرة أنه لا يجب الاستنتاج من ذلك أنه من غير الضروري بتاتا إلقاء نظرة على لسانيات الكلام، إضافة إلى ما كُتب في هذا الشأن حول التّفرقة بين اللّغة والكلام، ورغم هذا الإقرار إلا أنّ ما كان شائعا من تصوّرات جعل من دو سوسير مهتما فقط بلسانيات اللّغة والخلل يعود في ذلك إلى النّاشرين، يقول مختار زواوي في هذا الصّدد :"لكن أخطر اجتهاد

لشارل بالي وألبير سشهاي هو اختزال أفكار دو سوسير اللّسانياتي في لسانيات اللّسان، بل إنّ كتاب المحاضرات في اللّسانيات العامّة الذي وضعاه ونسباه إلى سوسير، قوام هذا الاختزال " إنّ اللّسان هو الموضوع الحقيقي والوحيد للّسانيات"، ...فليس بعد هذا الإخلال إخلال، وإنّما كلّ ما أخفقنا فيه تبع له، ونتيجة حتمية ناجمة عنه[٣].

3- **اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول،** العلامة اعتباطية على الأقل من منظورين؛ من ناحية خارجية بالنسبة للشّيء الذي تدلّ عليه، ومن ناحية داخلية بين الدّال والمدلول، وهي في الحالتين اعتباطية تماما بل كليّا، مثلما ورد في مخطوط سوسور، وفي هذا الشّأن نادى بنفنيست بإعادة النّظر في مفهوم الاعتباطية[٤] مبرّرا ذلك بعدد من الحجج، والانطلاق سيتمّ من اعتبار مفهوم العلامة هو أساس كلّ علم يدرس اللّغة، ويجب الإقرار أنّ العلامة من المفاهيم الأكثر صعوبة للتّحديد نظرا لأهميتها، إضافة إلى تجاوز الكثير من النّظريات للعلامة اللّسانية إلى العلامات غير الصّوتية، وفي هذا التّحديد يتوجّه أوسوالد ديكرو إلى قوله أنّ القسم المعاين من العلامة هو ما يدعى بالدّال، وأمّا الغائب منه فهو المدلول ، وأمّا العلاقة التي يقيمانها فيما بينهما تسمّى بالدّلالة[٥].

4- **اللسان نظام،** تظهر المخطوطات هذه المسالة جيّدا، أي اللّسان الذي يعتبر نظاما حرا لا يرتبط سوى بالمبادئ المنطقية، وهو علم بحت للعلاقات المجرّدة، وهذا النّظام لا يمكن اعتباره خارج علاقة اللّسان بالمجتمع، فلكي يكون هناك لسان يجب ان تكون هناك مجموعة مكتملة تستخدم هذا اللّسان.

5- **الاعتقاد أن سوسير قد أهمل البعد الاجتماعي للّسان،** أو أنه تركه جانبا وتظهر المخطوطات عكس ذلك، إذ أنّه انتبه إلى هذا الجانب من اللّسان في قوله "**واقع اللّسان اجتماعي قبل كلّ شيء**".

6-**فكرة التّرويج للبنيوية**: لم يفكر بنظريته من هذه النّاحية، ولم تكن كلمة البنوية موجودة في أي مكان من مخطوطاته، وكذلك غياب بعض الكلمات والتّعبيرات في مخطوطاته مثل بنيوية ومحور استبدالي.

نتوصّل مع لويك دوبيكير إلى أنّ الكتاب يلحّ على إعادة قراءة فكر سوسير من خلال مخطوطاته، وذلك بإتباع منهجية تزامنية ومنطقية وفقا لظهور مخطوطاته المؤرّخة، وذلك من خلال تتبّع تطوّر فكره وفق المفاهيم التي وضعها سوسير لنظريته، فمفهوم (حالة لسان) يؤدي بالضرورة إلى مفهوم التّزامنية، ويؤدي مفهوم (شكل ومعنى) بالضرورة إلى مفهومي الدال والمدلول. وما شدّ انتباهنا في هذا الكتاب القيّم هو ما أثاره صاحبه في فصوله بخاصّة في الفصل الأوّل المعنون بـ "**كلّ ما في اللّسان تاريخ**"، إذ تناول فيه مجموعة من القضايا والمفاهيم، ومن بينها تلك التي تتوجّه **من اللّغة إلى اللّسان**، إذ طُرحت في هذا العنصر تساؤلات مفادها:

- ما الفائدة من اللّسانيات؟ وما يمكن أن تقدّمه للأجناس البشرية أو لعلم النفس، وما يمكن أن يستفيده هذا الأخير من علم اللّغة.
- ما هي اللّغة؟ إذ لا يمكن إدراك اللّغة بشكل مباشر، وليست مجرّد ملكة يملكها الإنسان.

يكمن عمل اللّسانيات في وصف القوانين العامّة للّغة، ومن أجل ذلك يجب الانطلاق من الوقائع إذ لا يمكن استنتاج القوانين العامّة للّغة إلاّ من خلال أشكالها الخاصة، أي من الألسنة ومن المراقبة التي يمكن أن نقوم بها، ويمكن لأيّ واقع أن يكون مبنيا بمبادئ أكثر عموميّة، إذ يجب القيام بتعميم واسع ابتداء من الوقائع التي تتمّ ملاحظتها في الألسنة من أجل فهم وقائع اللّغة وإدراك ما يجعل اللّسانيات علما للّغة،

ومن أجل ذلك عليها إعتاق نفسها من العلوم الأخرى، بالإضافة إلى أنّه لا يمكن تناول اللّغة مباشرة فهي تقع بين عدّة مجالات (فيزيولوجي، نفسي، فردي، واجتماعي)، إذ يمكن تصنيف اللّسان وهو كلّ بحد ذاته، وله مكان الصّدارة في وقائع اللّغة، فإذا ما تمّ ربط كلّ شيء في اللّغة باللّسان سيكون هناك ترتيب داخلي في اللّغة، وذلك من دون أن يكون بالإمكان تصنيفها، وأن يكون اللّسان وحدة يمكن بناؤها داخل اللّغة، وهذا ما يقره سوسير في قوله :"لدينا في اللّسان شيء من الممكن دراسته على حدة، وليس من الضّروري أخذ عناصر اللّغة الأخرى بعين الاعتبار لدراسة اللّسان، وأكثر من ذلك أن اللّسان غير قابل للدّراسة إذ ما أضيفت إليه العناصر الأخرى[viii]"، وهنا يكون وضع اللّسان هو من غايات دو سوسير.

الغاية من وجود اللّسانيات:

تحدّدت اللّسانيات بعدّة مفاهيم، وأهمّ مفهوم لُخص في كونها "علما للّغة أو علما للألسن[ix]"، إلا أنّ هذا التّعريف للّسانيات لا يوجد له أثر في كتاب "المحاضرات" حسب مختار زواوي الذي، يقول :"بل إنّ التّصوّر الذي اصطنعه شارل بالي وألبير سشهاي عن اللّسانيات يختلف عن تصوّر دو سوسير لها، إذ أنّهما أزاحا مفهوم اللّغة عنها وتخليّا عن ميزتي التّعدّد والتّنوّع اللّتين هما من خصائص الألسن الثّابتة، فأضحت اللّسانيات في وجهة نظرهما" في ذاته ولذاته، الموضوع الوحيد والحقيقي للّسانيات[x]"، إضافة إلى التّخلي عن مفهوم الكلام واتّخاذ مفهوم اللّسان المفهوم المحوري الذي تدور حوله سائر المفاهيم هما الدعامتين الرّئيسيتين، والكفيلتين في نظرهما بصياغة اللّسانيات علمية[xi]. أمّا الغاية الخاصّة باللّسانيات والتي يبحث عنها دو سوسير منذ البداية هي بناء مفهوم

اللّسان وكأنه أحد المبادئ الكبرى الموجّهة لفكره، إذ أن الغاية نفسها للّسانيات ترتبط باللّسان كمجموع مبادئ تستخرج من خلال تحليل الألسنة.

لقد عاد لويك دوبيكير إلى قضيّة كون الألسنة ليست جسما حيّا، ويعتقد أنّه من أجل تحديد غايات اللّسانيات والتفكير في مناهج التّحليل يجب التّركيز على وقائع يمكن رصدها في الألسنة، لكن يجب تفادي فكرة أن الألسنة عبارة عن أجسام حيّة (اختيار مقاربة طبيعية تميل إلى محو المبادئ التي نريد إيجادها في الألسنة، ممّا يجعل من اللّسانيات علما طبيعيا) أي ليس جسم ينمو، ويموت، ويشير سوسير أنّ الألسنة هي الشّيء الملموس الموجود أمام اللّغويين على سطح الأرض، فاللّسان هو الاسم الذي يمكن إطلاقه على ما استطاع اللّغوي استخلاصه من مراقبته لمجموع الألسنة باعتبارها أجساما حية، ولن تتمكّن الألسنة من تجسيد عالم طبيعي ما على غرار عالم الحيوان، وهذا يعني أنه لا يمكن فهم غايات اللّسانيات بأفكار خاطئة عن الألسنة.

وفي الشّأن ذاته يرى سوسير أنّ الألسنة تتطوّر بشكل متواصل، وإذا كانت كذلك فهذا يعني أنّها على علاقة بالزّمن، فمسألة مسيرة اللّسان على مرّ الزمن مسألة بسيطة لكن غير مسلم بها، فهي تعني ضمنيا وبشكل خاص أن الألسنة على علاقة بالوقت، ويجب النّظر إلى المسألة عن كثب وتفحّص ما تحتوي عليه وجهة نظر التّاريخ المطبق على اللّسان، الذي هو جزء مهم من معارف الأمم، إذ نتعرف من خلاله على هوية أمّة وتاريخ تواجدها بالعودة إلى الدّراسة التّعاقبية.

يبدو أنّ هدف اللّسانيات له علاقة وثيقة بالمنهج؛ الذي يركّز على مجموعة من المبادئ ويمكن رصدها في الألسنة (ماهية الزّمن بالنسبة للألسنة). فقد بدأ نقد سوسير للاستعمال غير المنطقي للتّاريخ في للّسانيات، فحاول تطويره ابتداء من محاضراته في

نوفمبر عام 1891، حيث اعتمد على الاشتقاق والمقارنة بين الألسنية، ووضع مصطلحات جديدة، إذ ارتبطت كلمة (التّعاقبية) بعلم الأصوات إثر ظهوره الأوّل في المخطوطات المؤرّخة، ويهتمّ بتغيّر الأصوات عبر الزمن، بينما يهتم علم الصّرف والنّحو بالقيم الفردية التّزامنية، ومصطلح (التزامنية الشاملة) ويطبقها فيما يسميه **بنظرية التصويت** وهي نظرية الأصوات الملفوظة خارج أية حالة لسان وبعيدا عن لسان معيّن.

التوجّه الاستعمالي والتّداولي في دراسة اللّغة: لم يكن مفهوم استعمال اللّغة عند سوسر من المفاهيم المرتبطة بتصوّره لدراسة اللّغة، التي حصرها في معالجاته المفاهيمية من خلال "محاضرات في اللّسانيات العامّة"، إلا أنّ **لويك دوبيكير** في كتابه "**فهم فرديناند دي سوسير وفقا لمخطوطاته**" يبرز مفاهيم فكرية في تطوّر اللّسانيات، والجانب المحايث للّغة أي الدّراسة الدّاخلية والبنوية، ومثل هذا المفهوم مرتبط بمصطلح التّداولية، التي عرّجت على ضرورة ربط العلامات بالذّات الإنسانية المتلفّظة مهما كان موقعها في الدّورة التّخاطبية، ومن هذا المنطلق ألفينا التّداولية تهاجم اللّسانيات وتتّهمها بالقصور في الإحاطة بمحيط اللّغة الحقيقي، وفي الحقيقة التّداولية تخصّ بالإشارة إلى عدم اهتمام اللّسانيات بالكلام، الذي كان ثانويا استعانة بما ورد في كتاب "محاضرات في اللّسانيات العامّة"، إذ أنّه إذا استندنا إلى قول سوسير "اللّفظ ضروري لكي تقوم اللّغة"، فإنّ اتّهامه بالبنوية الصّرفة سيُنسَف لا محالة، إذ أنّ اعتماد التفرقة الموضوعة بين اللّغة والكلام، حيث تكون اللّغة مركز الدّراسة، بينما يتمّ اخراج الكلام من هذه الدّائرة لا أساس له من الصّحة، لأنّ سوسير لا يستغني في تحديده للّغة عن الكلام، فهو الذي يقول :"إنّ اللّسان ضروري لكي يصبح الكلام مفهوما وتحقّق كلّ آثاره، ولكن الكلام ضروري هو الآخر لكي يستقر اللّسان، وهو من النّاحية التّاريخية أسبق، فكيف لنا أن نعمد إلى الجمع بين الفكرة والصّورة السّمعية لو لم نلحظ هذا الجمع سلفا

ضمن فعل كلامي؟ [...] ثمّ إنّ الكلام هو الذي يمكّن اللّسان من التّحوّل [...] إنّ ثمّة إذن ترابط بين اللّسان والكلام*.

يبدو من القول إنّنا لم نحسن قراءة سوسير، أو على الأقل تمّ تقويله ما لم يقل، إذ التّأكيد على الفصل القائم بين اللّسان والكلام يجعل اللّسان أساسا، وعزل الكلام عن الدّراسة اللّسانية ليس صحيحا، وبذلك تكون هذه الثّنائية الشّهيرة قد فُهمت خطأ لمدّة قرن من الزّمن، إذ وضعت الحواجز بينهما إلى حدّ اعتبار اللّغة هي أساس التّفكير السوسيري، أمّا الكلام الذي يمثّل الخطاب المتشكّل من الذّات المتحدّثة وما تتطلّبه من عناصر لتكتمل الدّورة التّخاطبية ويتحقّق التّواصل فقد عدّ ثانويا، عرضيا، ودراسته تستوجب امتلاك أدوات مناسبة لطبيعة تغيّره.

من المؤكّد أنّ سوسير ميّز بين اللّغة والكلام، وميّز بين لسانيات اللّغة ولسانيات الكلام، إلا أنّ عزل الكلام عن الدّراسة اللّسانية غير صحيح بشكل جليّ، إذ أنّ سوسير يشير إلى أنّ اللّغة والكلام والتّفرقة ينهما ضمن عناصر أخرى شكّلت الفكر السوسيري وهي: الدّال والمدلول، الشّكل والمادة، الجانب الفردي والاجتماعي، يقول سوسير :"إنّ اللّسان منظّم اجتماعيا ولا يرتبط بالفرد، أمّا ما هو مرتبط بالفرد، أو متصل بالكلام، فهو 1) كلّ ما هو صوتي، و2) كلّ ما هو تأليف، و3) كلّ ما هو إرادي*. ولو بحثنا في هذه العناصر، لألفينا مطابقتها لما يدعى بالفعل الكلامي الذي أشار إليه سوسير في قول سابق، والذي بنى به أوستين نظريته، إذ يحيل في عمومه على استعمال اللّغة في سياق محدّد، أي ما يندرج من عناصر في الفعل الكلامي وهي: فعل القول، والفعل المتضمّن في القول، والفعل التأثيري، ويمكن التّمثيل لذلك بهذا الشّكل:

يبدو أنّ أتباع سوسير لم يتفطّنوا لمثل هذا المنحى التّداولي، لأنّ الفكر اللّساني كان متوّجها ولأسباب ظاهرة وخفيّة نحو عنصر اللّغة، والعمل على التفرقة بينه وبين الكلام، وتبيّن على إثره تطوّر الدّراسة اللّسانية وفقا لهذا المنطلق، وابتعادها عن الكلام وما يفرضه من علاقة بين المتخاطبين وما يحيط بهم من ملابسات، وفي الحقيقة هو ابتعاد عن الفعل الكلامي بكلّ مفاهيمه خوفا من الخروج عن الدّراسة المحايثة التي فرضت البقاء عند حدود البنية الدّاخلية.

أسهمت اللّسانيات في إبعاد الذّات عن نتاجها، وجعلت الملفوظات مجرّدة من أصحابها أو يتيمة، وهو تابع للفصل بين الإنسان وتاريخه، وفي الحقيقة هو نوع من الاستعمار السّاعي إلى طمس هوية الأفراد، يقول عبد الغفّار حامد هلال:" في نشأة الدّراسة اللّغوية في "أوروبا" ما يدلّ على أنّ للاستعمار وحملات التّبشير المسيحية دورا رئيسا ساعد على ظهورها وانتشارها وتطوّرها، للوصول إلى شعوب العالم التي يقصدونها، ويرجون من ورائها السّيطرة والنّفوذ"، لقد جاءت الجمل المدروسة منفصلة عن سياقها، وربّما كان في هذا الاختيار أهداف تتجاوز العلمية التي كان سوسير ينادي بها، إذ أنّ فكرة التّواصل المؤسّسة على الاخبار أو الإبلاغ لم يعد لها مكانة عند اللّغويين، وذلك استنادا إلى ما ذهب إليه كلّ من جاكبسون وتشومسكي في تحديدهما للّغة ولوظيفتها، التي انحصرت في الإطار المجرّد، ومن ثمّة إهمال ما له علاقة بالاستعمال الحقيقي، أي ربطها بالذّات المتلفّظة وجهاز التّلفّظ.

ومن هذه النّقطة ألفينا إميل بنفنيست في كتابه "مشاكل اللّسانيات العامّة" يثير إشكالية الكلام مرّة أخرى، ويتناول مصطلح الخطاب كبديل مصطلحي ومنهجي لدراسة اللّغة البشرية، ويقول :"وبذلك نغادر ميدان اللّسان بوصفه نسقا من العلامات لنلج فضاء آخر، وهو فضاء اللّسان بوصفه وسيلة للتّواصل، تعبيره الخطاب ...وهما أي الجملة

والخطاب ميدانان مختلفان بالرّغم أنّهما ينطويان على الحقيقة نفسها، وينتجان نوعين مختلفين من اللّسانيات على الرّغم أنّ سبيلهما يتقطعان في أيّ لحظة، فهناك من جهة اللّسان بوصفه مجموعة من العلامات الصورية، التي يتم إبرازها بإجراءات صارمة وترتيبها ضمن أقسام، وتنظيمها ضمن بنيات وأنساق، ومن جهة أخرى تمظهر اللّسان ضمن التّواصل الحيّ[x].

إنّ مثل هذا المنعرج البارز في البحث اللّساني المعاصر، لم يحظ بالشّيوع عند كثير من اللّسانيين المغاربة، وإذا عرجنا على بعض الدّراسات الجزائرية على سبيل المثال لوجدنا أصحاب التّيار التّداولي لم تكن لهم إشارة إلى ما هو تداولي عند سوسير، وإنّما كانت الدّراسات تميّز في أغلبها بين الطابع الوصفي المعياري للّغة والطّابع الوظيفي الاستعمالي.

الطّابع الاستعمالي للّغة وتداولية الخطاب التّعليمي في ظلّ التّطور التكنولوجي:

أصبحت العودة إلى الجانب الاستعمالي للّغة حتمية منهجية وفكرية، نظرا لتغيّر فلسفة التّحليل اللّغوي، التي عادت إلى اللّغة اليومية أو اللّغة التي يتحدّث بعا الرّجل العادي، أو ما يعرف بفلسفة اللّغة العادية Philosophie du language ordinaire، التي أثارت بشكل مميّز البحث في تلك الأدوات والآليات تسمح بالتّواصل العادي، وهو توجّه نحو ما يُعرف بالممارسة الفعلية للّغة في سياقاتها الحقيقية، ويُبلور هذا التّوجّه التّيار التّداولي الذي يختصره أغلب الباحثين في الممارسة والتّفاعل، وإن تحدّدت التّداولية في استعمال اللّغة، فإنّ مباحثها ستفضي إلى البحث في مواضع التّواصل الحقيقية التي تتجلّى فيها الأفعال الكلامية، والجوانب الحجاجية للقول، ومواطن التّصريح والتّلميح وما ينجرّ عنها من استلزامات خطابية انطلاقا من تلفظات قولية تصاغ فيها مقاصد محدّدة.

والعودة إلى مفهوم استعمال اللّغة أو التّوظيف الحقيقي والفعلي لها، هو في حقيقة الأمر عودة إلى الإنسان، والكشف عن علاقته باللّغة والمجتمع والجانب النّفسي الذي يسمح بتحقيق التّواصل، وإن كان مفهوم التّداول ينحصر في الممارسة اللّغوية، فإنّ هذا الفعل يستدعي المجالات المذكورة سلفا واشتغالها بطريقة تكاملية، الأمر الذي يجعل التّداولية La pragmatique مقرا لاجتماع عدّة علوم، تتصدّرها اللّسانيات التي انبثقت منها على حدّ اعتقاد كثير من الباحثين المحدثين.

إنّ الحديث عن تداول اللّغة وتداوليتها اليوم يحيلنا إلى كيفية تعامل البشر مع لغتهم في مواقف معيّنة وفي سياقات خاصّة، ما يفضي إلى الحديث عن تداول اللّغة في ظلّ التكنولوجيات الحديثة، ونخصّ بالذّكر ما يتعلّق بمواقع التّواصل الاجتماعي، والمواقع التّعليمية بخاصّة Youtube، وSkype وكلّ ما يتعلّق بالتّعليم عن بعد، وإن بدا الأمر بديهيا مع تطوّر الوسائل التّكنولوجية التي سخّرها الإنسان لخدمة ذاته وتطويرها وتقريب مصادر المعرفة إليه لتحقيق المنحى النّفعي، الذي بُنيت من أجله الذّرائعية في التّصوّر الأمريكي ومجتمعه، وفي حقيقة الأمر يعني ذلك البحث عن المعرفة والوصول إليها في أقرب وقت وفي كلّ وقت أيضا.

في خضمّ هذه المفاهيم النّظرية نتوجّه أيضا إلى ما يمكن أن نُسمّيه بتداولية اللّغة في ظلّ التكنولوجيات الحديثة، وإن تعذّر علينا الرّجوع إليها كلّها نظرا لتعدّد هذه الوسائل واختلافها في تقنياتها والأغراض المنتظرة منها، وبالتّالي سنكتفي بالإشارة إلى بعض النّماذج المتاحة لإبراز أهمّ المباحث التّداولية بروزا وهيمنة في تداول اللّغة عبر الوسائط التكنولوجية المعاصرة، أملا في الوقوف عند واقع اشتغالها ورهاناتها، ولعلّ أهمّ مجال يمكن الاستعانة به لإبراز اشتغال التّداولية باعتبارها علما لاستعمال اللّغة هو مجال التّعليميات والتّعليم عن بعد بخاصّة.

يمكن الحديث في هذا الصدد عن التّعليم الالكتروني، الذي يستعين أكثر وأكثر بعارضة البيانات (الداتاشو Data schow)، إذ تعرض المحاضرات والدّروس في برنامج/ تطبيق الباوربونت Power Point، الذي يتميّز بتقنيات العرض المصوّر، وهو ما يسمح بالتّواصل بين الأستاذ والطّلبة عبر وسائط تقرّب المسافة بينهما، والتّمكّن من إرسال الملفات واستقبالها في وقت وجيز. والسؤال الذي نُحاول الإجابة عنه يتمثّل في كيفية التّقريب بين الوسائل التكنولوجية والتّداولية باعتبارها منهجا يبحث في استعمال اللّغة، أو بالأحرى البحث في آليات استعمال اللّغة في المجال التّكنولوجي وذلك قصد تحقيق التّواصل في المجال العلمي وغير العلمي.

وقبل الخوض في الإجابة عن السؤال الجوهري الخاص بالرّابط الذي يجمع بين تداولية اللّغة والتّكنولوجيا، نتوقّف قليلا عند التّوجّه الاستعمالي للّغة مع ظهور التّداولية التي أعادت النّظر في تلك المسائل المهجورة في التفكير اللّساني المحايث مع فرديناند دي سوسير وأتباعه، التّوجّه الذي أثاره الباحث الجزائري مختار زواوي في كتابه "**دو سوسير من جديد، مدخل إلى اللّسانيات**"، والذي يكمّل ما عرضه اللّساني الفرنسي إميل بنفنيست في كتابه "مشاكل اللّسانيات العامّة" Problèmes de linguistique générale.

يذهب الباحث مختار زواوي في كتابه "**دو سوسير من جديد، مدخل إلى اللسانيات**" إلى أنّ التداوليات نشأت أول الأمر من رحم فلسفة اللغة، لكنها ما لبثت تعيد النّظر في منجزات اللّسانيات، وتتهمها بالقصور في مقاربة الاستعمال اللغوي، وتعيب عليها الاكتفاء بالنسق اللساني؛ أي أن جوهر الانتقاد موجه إلى تغييب الكلام من الدرس اللّساني. وقد هاجم التّداوليّون ما جاء به دو سوسير، ولكن هذا الهجوم غير مبرر لأنه لو أمعنا النّظر لوجدنا أن دو سوسير لم يكن بنويا صرفا، ولوجدنا أن

هذا الانتقاد قد تجاوز حدّ الموضوعية إلى درجة أنهم أقاموا مقابلة بين نموذج دو سوسير المؤسّس الأول للّسانيات ونموذج جون أوستين المؤسّس الأول للتّداوليات. لقد حاول مختار الزواوي إثبات عدم صحة هذه الانتقادات وأجملها في المسائل التالية:

- إزاحة الكلام من الدرس اللّسانياتي.
- عدم العناية بالفرد المتكلم.
- إقصاء الحال والسياق والاستعمال من حقل اللسانيات.

بيّنت كثير من الدّراسات اللّسانية المعاصرة أنه يستحيل أحيانا وصف بعض السلوكات القولية دون اللجوء إلى محيطها غير القولي، وبصفة عامة لا يمكن تحليل الكفاية اللّسانية ما لم تدرج دراسة الكفاية الأيديولوجية، ولن نفهم الرسالة ما لم نكن على دراية بالسياق الذي نشأت فيه والآثار التي ترمي إلى تحقيقها[1].

إن استعمال اللّغة ليس-حسب قول فان ديك-إنجاز فعل مخصوص فقط وإنما هو جزء كامل من التّفاعل الاجتماعي. أما دو سوسير فأشار مختار زواوي إلى أنه كثيرا ما كان يردّد بأن وجهة النّظر هي التي تحدّد موضوع الدّراسة، وقد أدى ذلك إلى صياغة طرق تحليل فعالة. وفي هذا الصّدد قد نتوجّه إلى القول إنّ استعمال اللّغة أو ما عرف بالتّداولية في العصر الحديث له طرائق مميّزة في الإنجاز، مثلما له أبعاد متعدّدة بفضل السياق الذي ينشأ فيه ويستعمل أيضا، وبالتّالي فالتكنولوجيا باعتبارها وسيطا ماديا قد تستعين بالإجراءات السياقية مثلها مثل أي تواصل عادي، ويمكن أن نبحث عن أنواع وسائل العرض التي تحقّق الاتصال والتّواصل، الأمر الذي سيؤدي إلى البحث عن الرّبط بين المرسل والمرسل إليه أو المثير والاستجابة، أو ربما تجسيد ما يدعى بالفعل

[1] -C.kerbrat-orecchioni, l’énonciation de la subjectivité dans le langage, P8.

الكلامي الذي ينشقّ إلى الفعل الإنجازي والفعل التأثيري، وحتى يتحقّق ذلك لابد من وسيط، وإن كان في المجال التّعليمي مثلا يتموقع قديما في الطّرائق والوسائل الموظّفة التي تعترض المرسل والمرسل إليه، فإنّ التّعليم حديثا يلجأ إلى الوسائل التّكنولوجية التي تضمن نقل اللّغة من طرف إلى آخر أو تداولها في إطار نمط تعليمي جديد رغم أنّ صفحة كتاب ما تعتبر وسيطا، وحديث المرسل (الأستاذ) تعتبر وسيطا....[ix]

وما يتبادر في هذا الصّدد ومن النّاحية التّداولية الحديث عن قوانين الخطاب المسيّرة للتّواصل الخاضع للتكنولوجيا، فنجد أن قواعد اللّغة التخاطبية في العصر الحديث أكثر جلاءً ووضوحاً وتحديداً منها عند القدماء، ولعل أحسن صياغة لقواعد المحادثة هي النموذج الذي جاء به **غرايس** وهي كالآتي:

1-قاعدة الكم: وتهم كمية المعلومات التي ينبغي توفرها وترتبط بقاعدتين:

* ليكن في مساهمتك قدر من المعلومات يساوي ما هو مطلوب.

* لتكن مساهمتك غير محتوية على قدر من المعلومات يفوق ما هو مطلوب.

2-قاعدة النوع: تتصل بها قواعد جوهرية. لتكن مساهمتك صادقة وترتبط بقاعدتين فرعيتين:

* لا تثبت ما تعتقد أنه كاذب.

* لا تثبت ما لا تملك حجة على صدقه.

3-قاعدة الكيف: تتّصل بها قاعدة جوهرية وهي "كن واضحاً" أي الوضوح، ويذهب **غرايس** إلى أنّ مدار هذه المقولة (ليس على ما قيل خلاف لما سبقها)، وإنما مدارها على كيف ينبغي أن نقول بحيث:

- تجنّب التّعبير الغامض.
- تجنّب اللّبس.

- الإيجاز.
- تنظيم الكلام.

والسؤال المطروح: كيف يمكن تطبيق هذه القوانين في أثناء الممارسة الالكترونية، وإلى أي مدى تكون صحيحة في تطبيقها، وما هي مكانة الاستلزام التّخاطبي في مثل هذه الوضعيات التّواصلية. وهل ما يطبق في وضعية التّواصل الشفوي العادي هو نفسه ما يطبق في وضعية التّواصل عن طريق الوسائل الالكترونية؟ والإجابة عن الأسئلة ستحيلنا إلى القول إنّ بعض الأحكام أو البديهيات قد تكون ملائمة للتطبيق، وبعضها الآخر بحاجة إلى التطويع، ولا يمكن التكهّن بمدى تجليها كما هي في التخاطب، لأنّها ستخضع لعدّة عوامل تختلف كثيرا عن تلك العوامل التي تسير التّواصل الطبيعي والحقيقي، وبالتّالي قد يحدث خرق لأيّ حكم من الأحكام أو خرقها كلّها في سياق تواصلي منجز عن طريق الوسائل التكنولوجية.

خاتمة:

إنّ طرح إشكالية **قضايا اللّسانيات السوسيرية القديمة والجديدة وتداولية اللّغة في العصر الحديث** جعلنا نتوقف عند المسار الأساس في الدّرس اللّساني الحديث، فدراسة اللّغة البشرية خاضتها الكثير من المناهج العلمية الغربية، وكان منطلقها مع اللّساني فرديناند دو سوسير، الذي نجح إلى حدّ كبير في تغيير وجهة دراسة اللّغة، والتي أرادها أن تكون علمية وموضوعية، إلا أنّ الإشكال لا يكمن في المفاهيم الواردة والشّائعة بقدر ما كان في الكتاب المنسوب إلى دو سوسير، بحيث يُعتقد في السنوات الماضية أنّ كثيرا من المفاهيم المتداولة عند الباحثين ولمدّة زمنية طويلة جدّا قد تحمل شحنات دلالية أخرى مختلفة نسبيا أو تماما عن المفاهيم الحقيقية التي أرادها سوسور.

وفي هذا الصّدد آثرنا العودة إلى بعض الكتب التي أسهمت في إعادة قراءة دو سوسير لعلّنا نكشف عن الخيط الذي يربط دراسة اللّغة لسانيا أي بشكل محايث ودراستها تداوليا ما يفرض الإحالة إلى الاستعمال وإلى السياق، وظهرت لنا الكثير من المفارقات الجوهرية التي ينبغي الانتباه إليها بشكل علمي، والتّفكير في الاشتغال بها مستقبلا لعلنا نضيف شيئا جديدا إلى دراسة اللّغة البشرية، وخصوصا وهي تواجه الوسائط التّكنولوجية التي ستغير حتما من بعض الآليات الإجرائية في استعمالها وممارستها، ولاسيما وأن التكنولوجيا في عصرنا الحالي قد فرضت سلطانها بشكل جليّ. ونظرا لكون تطبيق الآليات التّداولية في الممارسة اللغوية التكنولوجية رهن الاختبار والاكتشاف فآثرنا الحديث عن العلاقة المتينة بين التّداولية والتكنولوجيا في بحوث لاحقة انتظارا منّا الولوج إلى نتائج مثمرة تساعد الباحث على الفهم والإفهام، وربط المباحث النّظرية التي يشتغل بها المنهج التّداولي بالممارسة اللّغوية الفعلية بوساطة الآلة بشكل علمي موضوعي، فالوسائط التّكنولوجية فرضت على الإنسان المعاصر التحكّم في التّقنية وتطويع اللّغة بكلّ ما تحمله من أبعاد لتحقيق تواصل أفضل وبشكل أسرع قصد التقليص من المسافات والوقت وتعويض التّواصل اليومي بتواصل يقترب منه من حيث الشّكل والهدف، وخوض هذه الإشكالات فرض الاستناد إلى الوصف والمقارنة والتّحليل عند طرح القضايا اللّسانية المختلفة والوقوف على مسار الدّرس اللّساني في رحلته بحثا عن العلمية والإنسان وما يرتبط بهما من قضايا تهمّ اللّغة وتوظيفها في الحياة اليومية.

المراجع:

[i]- ولد فرديناند دي سوسير في السادس والعشرين من نوفمبر عام (1857م)، بجنيف في سويسرا، وهو سليل أسرة ذات إنجاز رصين في مجال العلوم الطبيعية، لكن بيكتيت عالم اللغة وصديق الأسرة، وجهه وهو في سن مبكرة إلي الدراسة اللسانية، فتعلم سوسير الألمانية والإنجليزية واللاتينية، بالإضافة إلي الفرنسية، وعندما بلغ سن الخامسة عشر، أضاف إليهم معرفته باليونانية، وقد كتب لبيكتيت "مقالا عن اللغات، حاول فيه التوصل لنظام عام للغة، يرجع فيه اللغات جميعا إلي نظام يقوم علي حرفين أو ثلاثة من الحروف الساكنة الأساسية، وعلي الرغم من مقدار التبسيط الضخم الذي يَسِمُ هذه المحاولة، إلا أن بيكتيت لم يثبط عزيمة سوسير، وإنما شجعه علي أن يدرس السنسكريتية وهو ما يزال تلميذا بعد في المدرسة.

وفي عام (1875م) ألتحق سوسير بجامعة جنيف لكي يدرس الطبيعة والكيمياء كما هو التقليد المتبع في عائلته، لكنه لم يمتنع عن دراسة نحو اللغة اليونانية واللاتينية، وبعد قضاء سنة في هذه الدراسة، تيقن أن مجاله العملي الصحيح هو دراسة اللغة، وليس شيئا آخر، ومن ثَمَّ أقنع والديه أن يرسلاه إلى جامعة (لايبزج)، وقد كانت هذه الجامعة مقرا لحركة عرفت باسم "مدرسة فقهاء اللغة الجدد" وهي حركة ذات نزعة تاريخية مقارنة، استفاد منها كثيرا في أفكاره وآرائه. وقد قضي سوسير في (لايبزج) أربع سنين إلا ثمانية عشر شهرا قضاها في (برلين)، نشر فيها عام (1878م) مذكرة من أربعة مقالات، عن "**النظام البدائي لحروف اللين في اللغات الأوروبية والهندية**" يصل حجمها إلى ثلاثمائة صفحة، لكن أكثر ما يعنينا فيها تأكيده على أهمية البحث في المشكلات المنهجية التي تعوق مجال الدراسات اللغوية، والتي تتسبب في اضطراب وعدم استقرار نتائج البحث في الحقل اللغوي. وفي عام (1880م)، أعد سوسير أطروحته من أجل الحصول على درجة الدكتوراه، وكانت بعنوان: "**استخدام حالة الإضافة في اللغة السنسكريتية**"، وقد حصل عليها بامتياز. ثم رحل سوسير في العام نفسه إلى باريس، وحقق هناك نجاحا ملحوظا، حيث قام بتدريس كل من اللغة السنسكريتية والقوطية، والألمانية الراقية القديمة، وغيرها من اللغات أيضا في "**المدرسة العملية للدراسات العليا**"، فكان له إسهامه في إنشاء جيل جديد من علماء اللسان الفرنسيين لم يكن موجودا قبل مجيئه. وفي عام (1891م) عاد إلي سويسرا، إذ مُنِح في جامعة (جنيف) كرسي الأستاذية للغة السنسكريتية والنحو المقارن، وتزوج وأنجب ولدين، ونادرا ما خرج للسفر، وتناقصت كتابته تدريجيا، وبدا أنه يعيش حالة من العزلة المريحة؛ لكن في عام (1906م) إثر تقاعد زميله (**جوزيف وريشيمر**) وافق سوسير علي أن يخلفه في كرسي "**الألسنية العامة** "، ومن ثَمَّ ألقي ثلاثة مجموعات من المحاضرات كان تاريخها علي النحو التالي: 1906-1907 و1909-1910 و1910-1911، ولم يجمع سوسير هذه المحاضرات في كتاب ولم ينشرها هو، خاصة مع مرضه في صيف عام (1912م)، ثم وفاته في الثاني

والعشرين من فبراير عام (1913م). وبعد وفاته شعر طلبته وزملاؤه بأهمية تلك المحاضرات، وبما فيها من فكر رصين؛ فعملوا علي نشر ما ألقاه من محاضرات في كتاب، وواجه ذلك صعوبة شديدة؛ لكون سوسير لم يحتفظ إلا بالقليل من المسودات الخاصة بتلك المحاضرات، ومن ثم لم يكن هناك حل سوي المذكرات التي قيدها الطلبة الذين حضروا له سلاسل محاضراته الثلاث، وكان سوسير قد ألف كل مجموعة منها تأليفا جديدا، ووفق خطة مختلفة، وكانت هذه المذكرات تحوي كما هائلا من التكرار، والتعارضات أحيانا، لذا أقدم كل من **(شارل بالي)**، و**(ألبرت زيشيهاي)**، زميلا سوسير اللذان لم يحضرا المحاضرات بنفسيهما، أقدما علي الاجتهاد في أن يؤلفا من كل ذلك عملا موحدا، يحاولا فيه تحقيق بنية مركبة، مع التسليم بأولوية السلسلة الثالثة من المحاضرات، دون إهمال السلسلتين الآخرتين، وملاحظات سوسير القليلة التي سجلها بنفسه، وقد نشرا ذلك بمعاونة **(ألبرت ريدلنجر)** في عام (1916م) تحت عنوان: **(محاضرات في الألسنية العامة)** وجدير بالذكر أن مذكرات الطلبة نفسها لم تكن متاحة للقراء حتى عام (1967م)، إذ في ذلك الوقت بدأ **(رودلف إنجلر)** في نشرها وتقديمها لجمهور القراء. نقلا عن: أحمد مومن: اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر، ص118.

[ii]– فرديناند دي سوسير، علم اللّغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، مراجعة النصّ العربي مالك يوسف المطلبي، دار الآفاق العربية، بغداد 1985، ص 05.

[iii]– لويك دوبيكير، فهم فرديناند دو سوسير وفقا لمخطوطاته، مفاهيم فكرية في تطوّر اللّسانيات، ترجمة ريما بركة، مراجعة بسام بركة، ط1، مكتبة الفكر الجديد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنان 2015، ص 10–11.

[iv]– المرجع نفسه، ص 25 وما بعدها.

[v]– مختار زواوي، دو سوسير من جديد، مدخل إلى اللّسانيات، ط1، ابن النديم للنّشر والتوزيع، وهران 2017، ص 41.

[vi] - Benveniste. E, Problèmes de linguistiques générales, Editions Gallimard, T1, Paris 1966, P 52.

[vii] - Ducrot. O, Todorov. T, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Editions du seuil, paris 1972, PP 131-132.

[viii] - Saussure. Ferdinand de, Cours III, Notes de Degallier, (1910-1911), ms. 434/1, cahiers I à VI, BPU, Genève, P179-180. نقلا عن: لويك دوبيكير، فهم فرديناند دو سوسير وفقا لمخطوطاته، مفاهيم فكرية في تطوّر اللّسانيات، ترجمة ريما بركة،

مراجعة بسام بركة، ط1، مكتبة الفكر الجديد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنان 2015، ص57-58.

[ix] -De Saussure. F, Premier cours de Linguistique générale 1907, d'après les cahiers d'Albert Riedlinger, P 1.

[x] - De Saussure. F, Cours de Linguistique générale publié par Charles Bally et Albert Sechehaye avec la collaboration de Riedlinger, P 317. نقلا عن مختار زواوي، دوسوسير من جديد، مدخل إلى اللّسانيات، ط1، ابن النديم للنّشر والتوزيع، وهران 2017، ص 39.

[xi] – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[xii] - فردينان دي سوسير، دروس في اللسانيات العامّة، ترجمة صالح القرمادي وآخرون، الدّار العربية للكتاب، 1985، ص 41.

[xiii] – Desaussure. F, Cours de Linguistique générale, Editions Talantikit, Bejaia 2002, P25.

[xiv] -Desaussure. F, Cours de Linguistique générale, P 116.

[xv] – عبد الغفّار حامد هلال، علم اللّغة بين القديم والحديث، ط1، 1989، ص70.

[xvi] - Benveniste. E, Problèmes de linguistiques générales, Editions Gallimard, Paris 1966, T1.

[xvii] - Benveniste. E, Problèmes de linguistiques générales, T1, P 130.

[xviii] – روبرت م. جانييه، أصول تكنولوجيا التعليم، ترجمة محمد بن سليمان بن حمود المشيقح وآخرون، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، الرياض 2000، ص 341.